JAMAL AL-QAISI



جمال القيسي

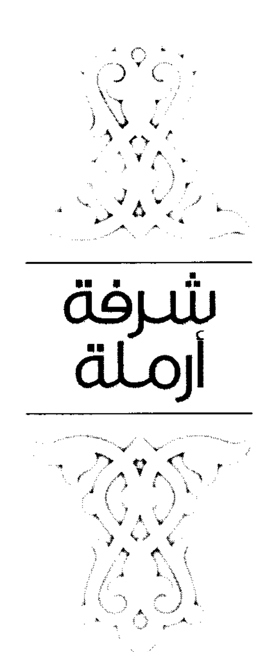
شرفة أرملة





طبع بدعم من وزارة الثقافة
2007





شرفة أرملة

شرفة أرملة / قصص قصيرة عربيّة
جمال القيسي / مؤلّف من الأردنّ .
الطبعة الأولى ، 2007



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب 5460-11 ، هاتفاكس 752308 / 751438 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب 9157 ، هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
®
لوحة الغلاف : **رافال أولبنسكي / بولندة**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **مصطفى قانصو للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان**

طبع بدعم من : ***وزارة الثقافة / عمّان ، الأردنّ .***
الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر الجهة الداعمة .
ISBN 978-9953-36-155-X



جمال القيسي

شرفة أرملة



الإهداء

إلى ختام . .

شمسٌ ندورُ

حولها الأربعة .

«أُعلن ان مواسم بذر ألواني قد بات وشيكًا . . .
وريشةٌ حمقى ستحررني مني في لوحة تشبه أرخبيلاً
في المنافي الباردة الكابية . . .
فأسحر السحرة بألف عصا تخرج من كف عصياني ،
وألقي بأشواقي إلى يم الحرف فيلقي بها اليم إلى ساحل الروح ،
ولا يأخذنها أحدٌ ، فالأشواق أشواقي !»

خامس (ب)

هي غير واثقة من ان الرقم الذي تطلبه صحيح ، ولكنها واثقة ان صاحب الصوت متلاعب او مجنون . . . لا تدري ، كلما قالت : مرحبا السفارة الإيطالية ؟ يرد بصوت هادئ : مرحبا . . كلا الرقم خطأ ، ويغلق الخط .

هذا الأمر تكرر أكثر من ست مرات ، وأخيرا قررت ان تحاول مرة أخرى لتقف على حقيقة أمره .

- مرحبا . . السفارة الإيطالية ؟ .

- مرحبا . . كلا الرقم خطأ .

- اتسمح لي بسؤال ؟

بهدوء قال :

- تفضلي .

- هل أنت مجنون ؟

بالهدوء نفسه أجابها :

- كلا .

- ما هذا الرقم إذن ؟

– ليس رقم سفارة . بل منزل .
– منزل من ؟
– لست ادري .
– وكيف تجلس فيه ؟
–لست ادري .
– هل أنت مجنون أمُ سكران ؟
– لا هذه ولا تلك .
– لم لغتك ركيكة ؟
– لغتي مشروخة .
– بل ركيكة ، كان عليك ان تقول لا هذا ولا ذاك .
– أنا احب أسماء الإشارة المؤنثة !
قالها دون ان يضحك .
– هل تعاني فشلا مع الرجال ؟
– مع الذكور تقصدين . . ؟
– اعرف ماذا اقصد . . اسمع . . . ماذا تعمل ؟
– أجيب على أسئلتك الذكية .
– أنت غبي . . اقصد ما وظيفتك . . ما هو عملك ؟
– مُعلّم .
– مدرس تعني ؟
– مُعلّم اعني .
– مُعلّم ماذا ؟ مُعلّم شاورما ؟

على الرغم منه انطلقت من أعماقه ضحكة جاهد في جعلها قصيرة ، وتراءى له ان المرأة خفيفة الظل ، ولكنه استعاد رباطة جأشه فأجاب :

- معلم لغة عربية .

- أين ؟

- في مدرسة الأغبياء الأساسية .

- للإناث .

- لكليهما .

- بدأت أفهمك .

بسخرية-حسبتها جدية- سألها :

- كيف ؟

لاح لها إنها بدأت تؤثر فيه وتدير دفة الحوار . بصوت جمّلته بنبرة التعاطف والتودد قالت :

- لا ادري ، اشعر انك مللت حياة التدريس فلجأت الى كل تلك الإجابات معي ، وانك في ضائقة ومسؤولياتك كبيرة .

- أنت ذكية جدا !

- اجل ، والمعلم شمعة تحترق لتنير الدرب للأجيال .

- اجل !

- ولكن دعني أسألك سؤالا .

-سؤال واحد فقط !

- كم عمرك ؟

- خمسون .

- خمسون عاما .
دون ان يضحك :
- خمسون يوما .
أطلقت ضحكة مجلجلة وقالت :
-أقصد حقا خمسون عاما . لا يبدو ذلك .
-خمسون سنة .
- ما الفرق ؟
- لا اعرف .
- لم اعترضت ؟
- هل يجب ان اعترض على ما افهمه فقط ؟
- طبعا .
- لماذا ؟
حولت مجرى الحديث قائلة :
- اسمع . . اسمع أستطيع ان أساعدك .
- بماذا ؟
- بأي شيء ، فأنت تبدو مرحا وطيبا وصبورا .
- هل تعرفين شيئا عن مشكلتي غير أني مللت حياة التدريس ؟
- يكفيك هذا .
- يا سيدتي أنا لست مدرسا ولا معلما ، بصراحة أنا كذاب .
- بصراحة اكثر أنت خفيف الظل جدا . وعمرك ليس كما كذبت .

- ذكاؤك مزعج . . كم عمري ؟
- ثلاثون .
- صحيح .
- أنت تشرب ؟
- طبعا وآكل الطعام وامشي في الأسواق .
- والله انك خفيف الظل . . ما اسمك بالمناسبة ؟
- أية مناسبة ؟
- مناسبة تعارفنا .
- وكيف تعتبرين أنَّا تعارفنا .
- صدقني يا . . ما اسمك بالله ؟
- صعب .
- لا تخفْ لن اخبر أحدا .
- تخبرينه بماذا ؟
- بأنك ستقول لي اسمك .
- يا سيدتي قلته ، اسمي (صعب) .
- صعب !
- اجل ولكنني سهل .
- سهل المنال ؟
- سهل المنال ، سهل التعامل ، حتى أنني احتملت كل مكالمتك وحشرك انفك في خصوصيات الآخرين .
- بدأتَ تثور .

-أثور ! أنت ذكية جدا !

- أستاذ صعب . . حدثني بصراحة ما هو عملك ؟

- بلا عمل .

- لماذا . . ما هي مؤهلاتك ؟ أستطيع مساعدتك .

- مؤهلاتي النفسية؟

- كن جادا . . ما هي شهادتك ودرجتك العلمية ؟ تبدو مثقفا .

- أنهيتُ الصف الخامس فقط .

- أنتَ تضحكني بهذه السخرية . خامس «ب» ؟

- بل خامس «أ» رغم أني لا زلت أتمنى لو أنهيت الخامس في الشعبة «ب»

- لماذا تحب الباء ؟

- لاسباب كثيرة .

- ما هي أو ما أهمها ؟

- انه كان سيكون هنالك شعبة اخرى في مدرستي .

- هل كانت مدرستك ذات شعبة واحدة للصف الخامس ؟

- اجل .

- عظيم ، هذه مدرسة راقية تركز على التعليم . أين تقع مدرستك ؟

- مدرستي لا تقع . ما زالت واقفة رغم السيول التي تجتاح القرية .

باتت على قناعة ان هذا الرجل دمث ولطيف . سألته بلهفة :

- أنت ابن قرية ؟

- أنا ابن قرية .

- وتسكن المدينة ؟

- ما الغريب ؟

- الغريب أنت .

- كيف ؟

- اسمك غريب وحديثك ، وأعصابك باردة ، وشكلك مريب .

- شكلي مريب ؟

- نعم ، دون ان أراه ، على الرغم من أنني أحب ذلك .

- تحبين الشكل المريب !

- اجل . . اقصد احب ان أراك .

- لماذا ؟

خطر لها ان الفرصة مناسبة لمداهمته بطلب لن يطول تمنعه أمامه فسارعت قائلة :

- لأني أريد ان اضحك .

- تفضلي .

- العنوان ؟

- بجانب السفارة الإيطالية تماما . هل عدلتِ عن فكرة مهاتفة السفارة ؟

دونما تردد حسمت أمرها . انها فرصتها . بلا خوف ولا شكوك وبجرأة قالت :

- اجل ، أنا في طريقي إليك .

كأنما يستدرك قال :

- لحظة من فضلك ، أنا أعزب ، أعيش وحدي .

- لا عليك أنا أرملة وأمي إيطالية . . .

قاطعها بهدوء :

- أنت تفهمينني خطأ . أنا لا أستطيع استقبالك .

- لماذا ؟

- لأنني سأعمل الآن .

- تعمل في البيت .

- اجل .

- ماذا ستعمل ؟

- سأكتب !

- ماذا ستكتب . . وصيتك !

- كلا سأكتب قصة .

- أنت كاتب إذاً .

- أجل .

- ما هي القصة التي ستكتبها .

- لست ادري .

- ما عنوانها على الأقل .

-لا اعرف . . اقصد أنني أضع عنوان القصة بعد كتابتها .

- لم لا آتيك الآن وستكتب رواية .

-أنت ذكية . ولكنني لست روائيا . .

- سأجعل منك روائيًا .

- كيف ؟

لا مناص من التراجع . لابد ان تكمل خطتها وتنجز ما عزمت عليه . قالت بلهجة جادة متحدية :

- سترى . أنا قادمة .

- كلا أرجوكِ ، على الرغم من أني احب ذلك جدا .

- لماذا ؟

- سأكتب قصة وضعت عنوانها الآن لأول مرة قبل ان اكتبها .

- ما اسمها .

- «مكالمة قصيرة» .

وتبدد صوته ، ولم يعد يجيب ، يبدو انه ترك السماعة مرفوعة .

أنا ذاهبة إليه رغما عنه . (صعب) ولكن ليس عليّ !

قالت في نفسها .

الاستاذ معروف

كمعلم ومربٍ كبير قال صديقي :

- إحترس . . . إياك والوقوع في منزلق كهذا . . .

سألته مستفهمًا :

- أي منزلق ؟

كمن ضبط طفلاً مزعجًا قال :

- أقصد الوقوع في مطب ثقافي كبير كالذي كان منك في جلسة البارحة .

بهدوء سألت :

- أي مطب ؟ أي منزلق ؟ منزلق أم مطب !

وكأنه شرع في محاضرة :

- اعني السقوط في حالة استفهام من الآخر قد لا تغتفر .

- أية حالة !

طفح الكيل على ما يبدو وخلته سيصفعني :

- عندما عَرَّفْتَك الى الاستاذ معروف أمس .

سألته بحيادية :

– نعم ، بماذا أخطأت ؟

علا صياحه :

– قلت له أهلا وسهلاً . . . أظن أننا التقينا قبل ذلك !

أجبته صادقًا :

– نعم هذا ما كنت أعتقده .

صاح :

– يا رجل . . . يا أبله ! الاستاذ «معروف» أشهر من أن أعرفك به أصلا . . والأصل ان تبتسم بامتنان في وجهه وتدعي الارتباك والغبطة بأنك التقيته أخيرا وتتعرف إليه .

سألته جادًا :

– وماذا يعني هذا ؟

صرخ بحماسة خطيب فاشل :

– حتى يعلم أنك متابع ومثقف . . .

خلت شررًا يتطاير من عينيه وانه لابد سيصفعني ، ثم وكأنه تذكر شيئًا ، قال مؤنبًا :

– ثم ما هذه الأسئلة التي سألته إياها ؟

– أية أسئلة ؟

– عندما تحدث في واقع الأمة وتحديات العصر ماذا سألته !

– ماذا سألته ؟

بسخرية وقد أخذ يقلّد صوتي بصورة جارحة :

– سألته عفوا أستاذ معروف ما معنى (انطولوجيا) ؟ ثم ماذا تعني

(بالأتمتة) و(الأبستمولوجيا) ؟

أجبته بكل براءة :

- كنت أريد ان اعرف معانيها .

سكتَ ونيران الغضب تمور في جوانبه :

- كنتُ أريد ان اعرف معانيها .

كررت أنا بكل براءة .

خلته لم يسمع .

لكنه صرخ في وجهي :

- يا أخي حين تتعرف الى شخص من وزن الاستاذ «معروف» يجب ان تبدي أنك تعرفه كما قلت لك .

ابتسمتُ ، فأردف :

- وحين يتحدث بأي موضوع يجب ان تهز رأسك بالموافقة علامة فهم لكل ما يقول .

سرحت بعيدًا وسألته :

- بماذا ينفع هذا ؟

عجبت لهدوئه المفاجىء :

- حتى يعرف أنك على درجة من الثقافة وأنك جدير بصداقتي . ثم هل نسيت إنني قلت لك قبل فترة من الزمن أنه عندما أعرفك على أحد وأضيف هو شقيق فلان ، عليك ان تبتسم وتقول أجل أجل يا مرحبا . . طبعا . . معروف . . معروف .

سألته بمنتهى البراءة :

- وبماذا يفيدني أن اظهر جديرًا بصداقتك ؟

قال بفخر :

- لأني راديكالي بطبعي ، وكل من أعرفهم يجب ان يكونوا على شاكلة باقي معارفي في الفكر !

بهدوء سألته :

-أحقا أنت راديكالي ؟

ابتسم بتواضع كاذب :

- هل لديك أدنى شك ؟

أجبته وجلاً :

- بصراحة أخشى ان أسألك معنى راديكالي فتغضب مني ولكني أظن أنني لست بحاجة الى صداقة أمثالك .

صاح وخلته غاضبا لولا ضحكته العالية :

- ها أنت راديكالي الآن .

أجبته بصوت يشبه الحشرجة :

- لستَ صديقي . . وما أنت إلا دعي فكر وثقافة . . . مالي وتفاهات أصدقائك .

صمت كمن خُرِس .

تابعت بهدوء :

- الاستاذ «معروف» التافه لم أجد سببًا واحدًا لمحاولاته التعيسة في حشو كل مصطلحاته الغريبة في جلسة عادية ، ولم ادرِ هل ينسى واحد من «وزنه» وأظنه من وزن الفراشة انه ليس في ندوة أو محاضرة

تضم نخبة من سياسيين أفذاذ أمثاله . وأنا لم اقدم له نفسي بصفة ثقافية أصلا بل أنت .

صمت من كنت أظنه صديقي ، وتابعت متسائلاً :

- ثم أنت أيها الراديكالي . . لماذا لم تخبرني ان مؤهلات يجب ان تتوافر بي كي أكون صديقك . ومنذ متى كانت الصداقة تحتاج الى مؤهلات !

سأل مستهجنًا :

- كيف ؟ كيف لا تحتاج الصداقة الى مؤهلات .

-ما هي الصداقة برأيك ؟

- حالة انسجام وتلاقٍ في أفكار وميول وإلا . . .

صمت برهة ثم أضاف متحرفًا لقتال :

- وإلا . .

قلت بشراسة شاهرًا سيف غضبي في وجهه ومتحيزا الى فئة الشفافية الأصيلة :

- وإلا فإنها مناكفات وزيف كما هي مع أمثالك فاغرب عن وجهي . . . أنا بحاجة الى صديق لا الى واعظ بغيض . . .

انطفأت في عينيه بروق وتمتم كأنه يحدث نفسه :

- ومشروعنا ؟

أجبته مرتاحًا :

- انتهى المشروع .

تمتم ثانية :

- المشروع مشروعي وأنت من يقوم به لا سواك .

أجبته بشموخ :

- إبحث عن «معروف» أو «عريف» أو «عويرف» أو أي نكرة أمثال أصدقائك . . . فمشروعي أن انتهي من ذكرى خانقة هي الفترة التي قضيتها معك وكنت اظن نفسي فيها صديقك لا سلّما لمشروعك ! .

طالما كَذَبتْ

بقى جفني كما (السيل لا يغمض . . .)

أفكر فيها . .

اعرف أني احبها منذ المرحلة الابتدائية . . . في الصف الخامسِ بالتحديد .

حين عرفوا بعلاقتنا . . تهكموا علي وعليها . . . حين قلت اني لا أتنفس إلا من رئتيها . . . ضحكوا ! فدافعتُ عنها وأخفيتها ولم انسها . . .

قلت سأواريها الثرى ان نسيتني . . . فإذا ما سُئلتْ بأي ذنب ؟ سأقول بذنبكم !

وظلت لقاءاتي بها عابرة . . .

وأحسست عند تفتح ألمي أكثر أنها أقرب الي من صديقة وأكثر متعة من سر . .

ستعرفني أكثر . .

بُحتُ لنفسي : وستحبني وسنتزوج . . .

وحلمت بأني إذا تزوجتها سأثأر من كل من سخر منا صغارًا ،

وهكذا ظللت وفيًا لها . .

كنت كلما أنتهي منها لا أملها . . . بل أظل أتملاها . . أنزهها ان تكون مثل مائدة فرُغَ منها الطعام .

أملي هي . . كتبت لها ذات مرة :

-أملي لا أملّكِ . ولا أملك سواك فلا تكونين لسواي . . .ما حياتي بلا أمل؟

كم ذا احبها . . . مازالت صديقتي ، وأخبرتني بعد ثلاثين سنة ان الزواج يفسد الصداقة .

- والحب ؟ سألتها ممسوسا .

-والحب! أجابت بأسى .

رضيت بك صديقتي . . . وسأتزوج يا حبيبتي من امرأة من دم وأحاسيس . . . تأكل الطعام وتمشي في الأسواق . . .

ولا أرافقها فأنا أشد ما أكرهه التسوق . . .

- زرني متى شئت وآتيك متى تحب !

هكذا قالت وطالما كَذَبتْ . . .

لكنني أسامحها وأتمنى الإبقاء على علاقتنا ما استطعت

وها أنا بعد كل هذي السنوات العجاف . . . أحبها وأكتبها .

قاص من كوكب آخر

إني على يقين من قدرتي على إنجاز المهمة .كيف وقد أنجزها من هم دوني درجة علمية ، بل ان بعض المشهورين منهم لم ينهِ دراسته الابتدائية ، وكتب قصصا طويلة ، وجميلة وعالمية ، فما بالي وقد أنجزت كتبًا في نقد القصة غير قليلة .

كيف لا أنجزها وقد قرأت العشرات بل ، مئات القصص والروايات ، المهمة ليست مستحيلة على أستاذ نقد جامعي في كلية الآداب مثلي .

لقد تكرر كثيرا سؤال القصاصين لي عن مجموعاتي القصصية التي أخبرتهم أنها ما تزال مخطوطة ولا أملك الوقت لتدقيقها ودفعها الى دار نشر ، وأبيت أن اعترف لأحد أني ما زلت أحاول إنجاز مجموعة قصصية واحدة .

**

أين يضيع القلم؟! كلما أزمعت ان أكتب قصة لم أجد قلما ، وأنا الاستاذ الجامعي !

ابحث في جيوبي فلا اعثر عليه . افزع الى الفكرة ، وإن طارت

احلّق كيف ؟! أقلب الأدراج قبل ان تطير فكرة القصة .

احضر الأوراق وأنا ابحث فلا أجده . احضر الطقوس كلها . . القهوة المرة - رغم أني لا احب القهوة ولكني لم أتعرف الى قصاص أو روائي حتى اليوم لا يدخن ولا يحتسي القهوة - الضوء الخافت . السجائر . أعاود البحث عن القلم ولا أجده .

ابحث عنه بين دفتي كتاب قريب مني فلا أجده . أقرأ صفحة من الكتاب لكي ابقى قريبا من الفكرة .

كتابة القصة تختلف عن كتابة النقد ، القصة لها طقوسها .

تذكرت ان هنالك بعض الأقلام لا قلما واحدا في حقيبة ابني المدرسية .

فزعت إليها . - اجل كل الطقوس تمت حتى أن زوجتي التي شكوت إليها هذا التأبّي من وحي القصة في مجافاتي أرسلتُ بها وأولادها الى بيت ذويها كانت راضية داعية لي بهبوط وحي القصة لأنه لا ينقصني الا استقباله - فتحت حقيبة الصغير لم أعثر على قلم رسم حتى .

أخذت أدور في الغرفة لعله تركها أثناء دراسته هنا أو هناك . . وباءت محاولاتي بالفشل .

فرحت إذ تذكرت ان العبقري غالبا مالا ينتبه الى ان القلم على إحدى أذنيه .

طربت قبل ان أتحسس مكان القلم وعلى أي أذن .

أطلقت قهقهة إذ وجدته على أذني اليسرى !

تناولته وعدت الى الأوراق .

شرعت بالكتابة ، شطبت الكلمة الاولى . . واستبدلتها بغيرها ثم شطبتها ثم استبدلتها بغيرها ومزقت الورقة ، وبدأت اكتب وأمزق .

رائع ، ألم يقل توفيق الحكيم «أكتب لأمزق وأمزق لأكتب» .

هذا يعني عدم اختلافي عن الكتّاب الكبار في القصة والرواية .

القامات كما نسميهم نحن النقاد التعساء !

(إنني أُحمِّل نفسي ما لا تطيق) أقولها لنفسي بصوت مسموع لو كان هناك من يسمع !

ثم مضى الليل ونفدت السجائر والقهوة وأنا مازلت على المقعد نفسه ، نظرت ورائي الى كومة الأوراق الممزقة وبدأت بورقة جديدة .

هلّ الصباح .

ها هي الآن أمامي ورقة بيضاء .

لكن لا بأس سأظل وراءها .

المشهـــد

« . . من قديم بعيد حيث كنت في عالم اسود ، أخرجوني ، لا أتذكر كيف خرجت منه ، لكنني على يقين بأني خرجت الى عالم اشد سوادًا » .

جمع كبير ، حاشد ، نساء ورجال وشيوخ وأطفال ، من شتى الألوان كانوا متجمهرين ويغطّون المشهد .

كنت قد تجاوزت العشرين من عمري بقليل .

خلته حادث مرور ؛ فلم اقترب ، فهم قطعًا هادمون لا منقذون . علت الأصوات والناس يزدادون ، ومن يحشر نفسه بينهم لا يخرج .

على مسافة بعيدة وقفت ارقب هذه الجلبة ، وضاعف من حيرتي أني لم افهم من هذا اللغط شيئا سوى انهم يتكومون ويتدافعون لمراقبة هذا الغريب .

ها قد اختلفت الحالة قليلا ، وجوه كثيرة من الداخل تخرج ، بعضهم عابس وآخر باكٍ ورأيت البعض يخرج ضاحكا ولمحت بعضهم بلا تعابير .

حاولت ان اسأل بعض هؤلاء الخارجين عما يجري ، غير أني

عدلت عن ذلك ، لا ادري لأي سبب ، وعدت ارقب ما يحدث ولم يتغير من الأمر شيء .

مرت ساعة وأنا لم ابرح مكاني ، ولم استطع سؤال أحد . ومر شهر ثم مرت سنة ؛ وبقيت لا افهم ما الذي يجري ولا أستطيع ان أسال أحد من الخارجين .

ومر عقد وأنا اقف في تلك النقطة البعيدة ، وعندما تبين لي الأمر دون ان أتحرى سرت بعيدا دون ندم وفي حلقي غصة وأشواك ، وعلى شفتي ابتسامة!

الدعــوة

أفاق على نفسه على مقربة من الستين !

يا للهول !

هل بت رجلاً على حافة قبره - كما يقولون - من ذا يصدق ان العمر جرى وتفلّت كما الزبد من بين يديَّ ، بعد شبابٍ ما كنت أظن له من زوال ؟!

أين هي ضحكاتي المجلجلة . . . والنساء اليانعات . . . والليالي الحمراء والبيضاء والسمراء ؟!

هل كل هذا سينتهي . . . .

مات أبي في الستين ، وجدي كذلك !

وما كان بأي منهما علة !

أما أنا فصنوف أمراض مختلفة تناوبت عليّ .

افسد الخمر كبدي ، منذ فَرطَ الفقرُ عقد حياتي المترفة التي كنت أحيا !

لم يكن إلا ان ابتغي زيارة بلد في أقصى الأرض حتى أكون بين ربوعه ، وفي أضواء حاناته ، وبرفقة وسامتي تكون أحلى نسائه . لكم

كنـت نهـمًا مـقـبـلاً على الحـيـاة . . . ولكم كـانت مـقـبلة علي ، الأصدقاء ! . . ما أكثر أصدقائي .

ما إن تـهبط طائرتي حتى ابتسم كأني أراهم فرحين بقدومي . . . ثم أصل الى الفندق وأهاتف واحـدا منهم فـيـشـيع الخـبـر ولا يهـدأ الهاتف ونلتقي !

ونسهر حتى انبثاق الفجر ، ولم نكن نعرف حينذاك أين افترقنا أو أين نحن حتى نصحو قبيل غروب ذلك اليوم .

ولكم كانت المفاجآت مضحكة ، فتارة نجد أنفسنا في شقة أحد الأصدقاء ، وتارة في شـقـة إحـدى أمـيـرات الغـواية والجـمـال ، وأحـيـانا نصحو فإذا بنا في إحدى المستشفيات وقد وقع لنا حادث سير مشترك!

ما أروع أصدقائي الذين لم يعد يعرفني أحد منهم اليوم !

ربما كانوا اصدقاء محفظتي ، وكن رفيقات نقودي لا وسامتي .

منذ تبدل حالي تبدلت أحوال قلوبهم تجاهي في كل البلدان .

في الزمن الغـابر وقـبل ان اعـتـاد السـيـر بحـذاء مـغـبـر ، كـانوا لا يجدون حرجا في طلب النقود وكأنهم أطفال يطلبونها من والدهم ، مع وعد بالسداد !

وكنت لهم أكثر من أب إذ أقول جادا وأنا أكاد اضحك فرحًا : يا صديقي ليس بين الأصدقاء حساب .

وما كنت أحسب ليوم كهذا حساب . . .

أهدتني زوجـتي فكرةً قـبل وفـاتهـا لمّا ظهـر عـجـزي عن تأمين علاجها ، بأن اطلب من «الأصدقاء» المنتشرين في أرجاء الأرض ، ما

كنت أعطيه لهم وبطريقتهم .

ورفضتُ هذه الفكرة طويلا بعد ما أداروا لي ظهورهم . .

لكن لابد العمل بهذه الفكرة حتى لا أموت جوعًا أو انفذ فكرة الخلاص الطوعي التي باتت تلح علي منذ وفاتها ، حيث لم يعد لي من أحد يسمعني بعدها!

بات أمر الاتصال بهم هاتفيا مُكلفاً لجيبي الخاوي !

أنا الذي ما كان أحد منهم يهاتفني ليعبر لي عن شوقه إليّ حتى أطير إليه في اليوم نفسه أو في اليوم التالي على أبعد تقدير ، وان لم أستطع فأدعوه لزيارتي دون ان أكلفه أية مصاريف . . . معاذ الله ، ياعيب . . . .

في بدايات تطبيق فكرة الاستدانة كنت ألقى إجابات بمحاولات تلبية الأمر . . . ثم لا يعاودون الاتصال . . .

وبعضهم يعاود الاتصال سريعا ، مبديًا انسداد كل الطرق وفشل كل محاولاته ، حتى يشعرني أنه لم يقصِّر ، وليحفظ خط الرجعة ، «فما يدريك إذ من كان غنيا وافتقر قد يغنى ثانية»

البعض الآخر كنت أسمع حشرجة صوته ، حين يسمعني للمرة الثانية في الأسبوع نفسه ، وأنا أسأله عن الأمر ، فيكاد يصرخ بأنه أحوج مني الى المال ، يصدني ليثنيني عن الاتصال مرة أخرى .

أحد «الأصدقاء» ، وكنت أظنه قادرًا على سماع شكواي أكثر من سواه . . طلبت إليه ان يسمعني حتى النهاية ، ومن ثم ينصحني ماذا أفعل .

أخبرته إنني خسرت أموالي في صفقات كنت آمل ان تضاعف أموالي ، وأضفت له أني بعت كل ما كنت أملك ، فأخذ يتمتم متبرمًا بأني أخبرته بذلك ألف مرة !

أني شرحت له سريعا إزاء تبرمه بتُّ مريضًا بالسكري وبالضغط وبذات الرئة .

أخبرته أني اضطررت للعمل في أحد الفنادق التي كانت تستقبلني استقبال الفاتحين ، واضطررت للعمل فيها بوابًا كي أؤمن العلاج لزوجتي التي احتملت جنوني كل تلك السنوات .

وشكوت أني استعين ببقايا كؤوس القيها في جوفي ، علّ دماغي يسامح المرآة إذا ما نظرتُ الى بياض رأسي والى جمرتين هما عيناي .

**

نصيحة صديقي خلاصتها : بما أن زوجتي ماتت وقالها -كمفكر يسلّم بالحقائق ، ويحب مناقشة الواقع دون عواطف - أنه لا بد ان أضاعف من جهودي في الفندق وعلي أن أطيل أوقات عملي ، أو ان ارتكب جريمة بسيطة مقدار عقوبتها ثلاث الى خمس سنوات .

حينئذ أرتاح في سجن يؤمن لي الدواء والطعام ومشاهدة التلفاز . . . جادًا كان في تشريح الأمور . . . ولأنه «الصديق» الذي سمعني ، طلبت لقاءه لأني اقتنعت بأنه خير من نصحني . . . فتذرع بحجج كثيرة متهربا من لقائي إلا إنني أغريته بحيلة إنني على مقدرة للهرب بأموال الفندق كاملة ، فإذا ما نجوت نجونا معا ، وعادت الليالي الرائعة ، وإذا ما أخفقت فإني سأزج وحدي في السجن المدة التي

توقعها أو أكثر قليلا وأنعم بمشاهدة التلفاز كما ذكر!

آنذاك حدد هو الموعد شريطة ان أكون حذرًا غاية الحذر وان لا أورطه أبدًا .

**

حين التقينا التمعت في عينيه شهوة المال وأمل نجاتي التي هي نجاته .

طلب ان اشرح الأمر تفصيلاً . . أخبرته إنني رتبت له إقامة في جناح خاص وسأوافيه بالتفاصيل ريثما يستريح قليلا من تعب السفر . . . وكانت تكاليف سفره التي تكبدها تغنيني شهورا عن العمل في الفندق وتساعدني على التفكير بطريقة أفضل . . أو في أقل الأحوال ستدفعني الى الأمام وتثبت في نفسي الأمل بأن الدنيا «ما زالت بخير» .

**

حين دخلت الى جناحه الفاخر جلست قبالته كما كنت أجلس أيام زمان .

يبدو ان الأمر تم . سألتني عيناه .

- على خير وجه !

بابتسامة غامضة خبيثة أجابته شفتاي .

وحيداً ذات ليلة

الوحدة بحر يتلاّعب به . الكآبة انشوطة تخنقه . لم يبرح منزله منذ خمسة أيام . ليست به رغبة في رؤية أحد . . لا يجرؤ على الدنو من الكتب . بات يكرهها ، ولم يرد على أية مكالمة ولكنه يُبْقي هاتفه يطلق رنينه حتى يخفت كشمعة انتهت .

لم يجب أحـداً . . . وردته هواتف بأرقـام يعـرفـهـا وأخـرى لا يعرفها . . . .

كان يستجير بالحبوب المنومة ، ولم تتجاوز تحركاته في تلك الأيام سوى التردد على المطبخ والحمّام ثم العودة الى السرير . . الزمـان غير معـروف . . غـالبًا مـا كـان يجـهل الوقت . . . ليـلاً أم نهـارًا إذ أسـدل الستائر وأغلق الاباجورات .

وأحيانا قليلة . . حين كان يصل الى المطبخ لتناول الحبوب المهدئة والمنومة وجرعات الماء وجرعات الخمر خبط عشواء ، يفتح باب الشرفة لطرد دخان السجائر لا لاستنشاق الهواء .

لا يدهشـه بيـاض نهـار ولا سـواد ليل ، ومـا همـه ان كـان الوقت ضحى أو فجرًا أو قبيل المساء أو بعد منتصف الليل أو رابعة النهار .

يقينه ان النوم أكثر رحمة من الواقع ، فمهما حمل من كوابيس أو أحلام فأجمل ما في ذلك انه لا يتذكر منها شيئا .

يصحو ولا يدري كم نام . يدلف الى الحمام فيما العرق يجلل جسده فيغتسل بالماء البارد ثم يأخذ ما يحتاج ليواصل التواصل مع النوم . . يعود الى سريره . . . ينام عاريًا . . شبه عار مدثرًا بغطاء ثقيل أو دون غطاء .

تحسس رأسه المثقلة وتناول مضادات الصداع . . بعد هذه الأيام لسعه البرد ، وأصابته آلام شديدة في أمعائه ، ومعدته أخذت تعضه ، وعلا لهاث صدره فلام نفسه وكف عن كرنفال اعمال أيامه الخمسة عدة ساعات . . .

تسلل النوم الى جفونه دون عناء .

استيقظ على رنين هاتفه الذي بقي مصّرا على إبقائه مفتوحا ، كان رقما لا يعرفه . . ترك الرنين ينتهي دون ان يجيب ، ثم بعد قرابة ساعة جاء صوت رجل مسن - هكذا قدّر - حين أجاب ولا يعرف سبب رغبته بالرد على هذا الرقم غير المعروف .

بصعوبة تكلم . استغرب من نفسه انه لم يتكلم منذ خمسة أيام سوى بضع كلمات . . بعضًا منها مقاطع شعرية . . تذكّر انه غَنَّى لنفسه وبكى ذات ليلة أو ليلتين وربما أكثر .

الرجل على الطرف الآخر قال وكأنه يراقبه منذ ابتدأ (عزلته المختارة) .

- لا تقلق .

- عفوًا .

أجابه مستنكرًا وهو متأكد بأن الحزن قد هدَّ كل قواه إلاّ العقلية .

أجابه بهدوء حكيم :

- قبالة الفندق المجاور سيارةِ حمراء بانتظارك منذ وقت غير قصير . إذهب وستأخذك .

- عفوًا .

بهدوء غير مريب وبنبرة تفيض حنانًا أضاف :

- افعل ما قلته لك . وكن مطمئنًا يا بنيّ !

هل تلعّبت أقراص المنومات والخمرة والكوابيس بعقله ؛ كلا هو على يقين من ذلك . ليس يدري كيف ارتدى ملابسه وخرج .

الوقت ليلا ، قدّر انه بعد منتصف الليل . وعند الجهة المقابلة لمح السيارة الحمراء ، اقترب منها وكان خلف المقود امرأة رقيقة الملامح ، رحبت عيناها به ولم ترد تحيته فهو لم يلقِ بتحيةٍ تسمع .

مضت السيارة بهدوء ولم يسأل الى أين وجهتها ولم تفصح هي عن ذلك .

كيف يقولون بأن النساء ثرثارات ؟! سأل نفسه لما طال صمتها والطريق .

عجلات السيارة تجوب طرقات يعرفها ، ثم أخذت تغوص في منعطفات وأماكن لا يعرفها تماما ، هاهي ابتعدت عن الأماكن التي يعرفها .

اختلفت عليه الأماكن . . وبات يقترب من أحياء شعبية

وبيوتات يخيم عليها البؤس . كاد يسألها الى أين ، لكنها بهدوء اوقفت السيارة . واطفأت المحرك وقالت باشفاق وهي تهم بالنزول :

- تفضل .

نزل من السيارة وكأنه يعرف أنهما وصلا ، والى أين هو ذاهب ، وما مرد ذلك إلا قناعته الراسخة بأنه تحدث له دائمًا أشياء غريبة لا تدهشه ولا تخيفه ولا تؤثر فيه .

دلفا الى بيت بائس حيث الروائح العطنة تزكم الانوف ، هبط عدة درجات . . . بعد نظرة وادعة منها ، طلبت اليه ان يتبعها . فتبعها .

قرب باب خشبي كبير وقفت . فُتح الباب فظهرت امرأة سوداء في العقد السادس ، تبدو عليها امارات الريبة ، ولمعت في عينيها فرحة منتصر ؛ قالت بلهجة آمرة واثقة :

- ادخل .

فدخل ، وغادرت المرأة الرقيقة دون أية عبارة .

ظلا واقفين ، وكان ينتظر نهاية الأمر . سألته جادة بطريقة من يقول اجبني بصراحة :

- هل تؤمن بالسحر ؟

أجابها صادقًا :

- كلا .

لم يبد عليها أي تأثر من جوابه .

قالت بثقة كبيرة :

- كيف أحضرتك إذن الى هنا ؟

بقرف أجابها :

- أنا حضرت بإرادتي .

سألته متحدية :

- هل تستطيع العودة إذن ؟

دون خوف وبنزق وبصوت حاول ان يجعله طبيعيًا :

- طبعًا .

إندلع غضب في عينيها فكتمته وفَحَّت كأفعى :

- ارجع ان استطعت !

حاول إدارة ظهره ليخرج ، فلم يستطع . !!

جلجلت ضحكتها ، وقالت بنبرة متحدية :

- أرأيت ؟ !

ساوره خوف لأول مرة وفكر . . لكنها قطعت تفكيره بلهجة آمرة وان كانت لا تخلو من شفقة .

- قل لي ماذا أردت منذ عبارتك الاولى «الوحدة بحر يتلاعب به» وإن تكذب فاني لن أساعدك .

ارتج الأمر عليه ، أجابها كتلميذ خائف :

- كنت أريد كتابة قصة قصيرة ولم افلح في وضع نهاية لها .

ابتسمت . وزالت ملامح الريبة عن وجهها وقالت كمعلم :

- لا تجعل النهاية انتحار البطل ، ولا صحوته من كابوس .

سألها بلهفة :

- كيف انهي القصة ؟

أجابته منهية الحديث :

- القصة انتهت .

لقاء صحافي غابر

وحـدي في مـقـهى الزهاوي الذي أدخله لأول مـرة ، اقـرأ في صحيـفة أمس الأول من ذاك اليـوم ، وقـد وصلت الى حل الكلمـات المتقاطعة .

اقترب مني شـاب وفتاة على استحياء ، وبكل أدب طلبا الجلوس معي .

جفلت ، ولم أمانع . عرّفاني بنفسيهما وانهما صحافيان ويرغبان بالحديث إلي وإجراء لقاء صحفي ان كان وقتي يسمح ؟

اعتبرتها مداعبة ، أو على الأقل انهما يرغبان في تمضية وقت ممتع ، فهما يبدوان في حالة نشوة لذيذة .

قلت لإضحاكهما :

- ولكن وقتي ثمين- مع الاحترام - فأرجو ان لا يطول ذلك .

وعداني بأن لا يكون طويلا . وقالت عيناهما أنني على درجة عالية من التواضع .

- أستاذ لم تجلس في مقهى غريب عن مقهى الأدباء أمثالك ؟

سألت بصدق :

- وأين يجب علي ان أكون ؟

بكل دماثة أجابت الصحافية الجميلة :

- في مقهى ريش مثلاً .

أدركت ان ثمة التباسا في الأمر ، وأنني أنا في حالة نشوة ، إذن أنا في القاهرة ولست في بغداد !

قلت من فوري ولم أشأ ان ادخلهما في حرج :

- عزيزي ، يبدو ان ثمة خطأ أو باختصار «يخلق من الشبه ٩٩» !

ضجا بالضحك على خفة ظلي . اعتقدا أنني أسرفت في النشوة .

الشاب النحيل وقد أنهى ضحكته الصادقة قال بأدب :

- أستاذنا . . نرجو ان لا تفوت علينا فرصة الالتقاء بك والتحدث إليك بما يسمح به وقتك .

قلت صادقا :

- والله أنكما تخلطان بيني وبينه فأنا كثيرا ما سمعت بأني أشبهه .

قالت الصحافية الشابة لتفتح شهيتي للحديث :

- هل تعتقد انك لست أنت لأن حال الأدب غير ما يروق لك ؟

وحين أغلظت الأيمان انني لست أنا . . قاما بالتوسل الي ؛ ان لا احرمهما هذه الفرصة فهما مبتدئان ولقاؤهما بي يشكل لهما شيئا مهمًا في الصحيفة التي يعملان بها .

في نفسي قلت لم لا . تفضلا .

بادرني الصحافي بسؤال :

- هل معارضتك لهنتنغتون لها علاقة بأن الجذور مهيمنة في ذات المرء ولا يستطيع منها فكاكا . . . ؟

كدت اضحك . . ابتسمت . فأنا لا اعرف عما يتحدث . ولم احبّ ان اصدمه بأنني لست هو ؛ فتحايلت عليه حتى لا يقع في حرج سيؤلمني .

بجدية قلت :

- أمتنع عن الإجابة على هذا السؤال لأن الجذور لا بد ساكنة فينا .

الصحافية بادرتني بسؤال صعقني :

- هل تقصد أو عفوًا تعني- ومع شديد الاحترام - وجود فارق بين انك تقول هذا وما قاله أدونيس بأنه رغم ان جنسيته بعد السورية اللبنانية هي اللغة العربية ؟

أخشى ان يطرد هذان الصحافيان ان تم اكتشاف أمرهما بأنني لست إدوارد سعيد .

قلت برجاء :

- عزيزيّ . . أنا لست الشخص المقصود أنا قارئ نهم ، ولا علاقة لي بكل ما سبق .

الصحافية الحمقاء تقول وكأنها تستدرجني لسبق صحافي :

- هل يعني هذا انك تتبرأ من كتابيك «البدايات» و«الاستشراق» .

ضحكت طويلاً . موجات الضحك تتتابع ، إحداهما حملتني على القول :

- أجل .

بادرني الشاب قائلا :

- أستاذ إدوارد ما السبب ؟

حرت جوابا . . لكنه أنقذني أو أنقذ نفسه إذ قال :

- هل لرأيك بأن الحضارات تتشابك لا تتصادم علاقة بهذا ؟

اجبته باختصار وأنا أهم بالمغادرة :

- هذا رأي الناقد فخري صالح . . هل قرأته ؟

على الفور أجابني :

- طبعًا . . لكني أريد ان اسمع منك إذا تكرمت رأيك أنت في هذا .

قلت له :

- يا سيدي . . .

قاطعني متمثلاً دور صحافي متمرس :

- لم أنت في زيارة غير رسمية الى القاهرة ؟

أجبته بشيء من الجدية .

- لأنني مللت .

بادرتني الصحافية :

- ألم تقل ذات تصريح صحفي بأن باريس مدينة عصية على الاكتشاف الكامل .

أجبتها مصححا :

- ادونيس قال هذا ولست أنا .

قال الشاب :

- هل من الممكن ان نلتقط صورة للحوار .

أجبته صادقا :

-هذا خير ما تفعله لأنك ستكتشف الحقيقة حين تعودا الى الصحيفة ، وتخسرا الوظيفة .

علاقة ما

في أوج بهاء حزنه النبيل استوقفته ؛ على الرغم من أنه يقتعد الأرض لم يتنبه للصوت ؛ رفعت صوتها اكثر وبنبرة آمرة قالت :

- أنت إنّي استوقفك .

كأنه على موعد مع هذا .

رفع بصره إليها . وقال بهدوء :

- لست ماشيًا حتى تستوقفيني . أم انك تعنين أنَّ علي أنْ اقف؟

لم تأبه ، وقالت بصوت أشد غلظة وأعلى نبرة :

- استوقفك أعني قف .

لم يبد عليه انزعاج ، واخبرها انه لا يستطيع .

قالت بلهجة جادة حازمة : بل تستطيع . قال ببرود : قبل ان نحدد ذلك كله ، الاستيقاف أو قف أو توقف أو اقدر أو لا اقدر . . . هل لي بسؤال ؟لاذت بصمت متسائل . كيف سأروي هذا للورقة بهذه الصورة ؟ استفهمته بذات اللهجة الجافة الآمرة : أية ورقة ؟

قال لها :

- إنّ ما يجري بيننا من حديث يجب ان يكون على شكل

حوار . قالت كأنها على عجلة من امرها : قف وسأخبرك .

- قولي ، اني أسمعك . .

قالت :

- أبقهِ كما هو . ألا تقولون ان الحوار يضعف القصة ؛ بل هو لا يرغّب القارئ بالمتابعة .

- أنا أروي للورقة لا لقارئ .

- أنت هو ؟

أجابها باهتمام :

- اجل (أنا هو) .

- لم أنت هنا إذن ؟

قاطعها :

-المعذرة أنا هو . ولكن من تعنين على وجه التحديد ؟

جلست والشرر بعينيها ، قالت بلهجة غير مهادنة :

- اعني انك أنت الذي عليّ واجب أؤديه تجاهك .

وأردفت :

- وعليك ان تساعدني في ذلك .

لم يبتسم . قال بنبرة أقرب الى السخرية :

- كيف ؟

- كف .

ببراءة سأل :

- عَمَّ أكُفْ ؟

قالت وقد ابتعدت عنه قليلا :

- عن الأسئلة .

- أية أسئلة ؟

- الأسئلة التي لا إجابات لها .

- مثل ماذا ؟

- مثل إجاباتك .

- مثل أسئلتي تعنين .

- اجل ، ها أنت تفهم .

تابعتْ - وقد مرت نسمة عليلة شعر هو بها :

- عليك ان لا تسأل .

- اسأل من . . . ؟

قاطعته بحدة وقد جذبته من كتفه بقوة فسقطت الى جانبه على الرغم منها ؛ علا لهاثها :

- مازلت تسأل . . . قم فاتبعني .

- سأتبعك ولن أسأل الى أين ؛ أرأيتِ ، بت لا أسأل .

وقف قبلها بهمة ، وتناول يدها بقوة أرعبتها ، فإذا بها واقفة قال :

- سيري ؛ سأتبعك .

ذهلت ولوهلة اهتز بها المكان ، وجاهدت ان تتماسك :

- كيف يجب ان تسكت ؟!

- . . .

- اصمت ها أنت تعود للسؤال !

- عفوا أنا اكلم نفسي .

- طقس فريد .

قالها ببراءة .

- ستمطر لا بد الليلة .

- طقس فريد في الحوار عنيت .

- كيف أقتلكْ ؟

- شنقًا .

- بأية تهمة ؟

- بأية تهمة !

- كيف أشنقك ؟

- من فؤادي !

أربكها الجواب ، فسألته :

- لم ؟

- لانه ما أحبّ سواكِ !

- من تعتقدني ؟

- أعرفكِ . . أوتُنكرين أني ابنك ؟

- ما الذي تعرفه عني ؟

- القليل ، ما يعرفه الولد عن أمه !

- ما هو القليل ؟ أوَ لا ترى أنى بتُّ أراك تجيب ولا تسأل .

- الإجابات مغلقة .

- والأسئلة ؟

- مفتوحة . . . مثلكِ !

زجرته :

- تأدَّبْ .

- اعني الأسئلة مفتوحة أي لا تدرين كيف تهبط عليك .

كمن يريد أن يتعلم جاءت نبرة صوتها :

- وكيف صرتُ مفتوحة برأيك ؟

- بالمعنى الذي فهمتهِ أنتِ ، بفعل احتلال طوله مائة سنة تقريبًا .

فهمتْ مراده . وبحركة بدا أنها تعودتها قالت آمرة :

- هّيا .

سألها باستخفاف :

- الى الشنق ؟

بحنق نترت كتفها ثم قالت ساخرة :

- عدت تسأل !بل الى نزهة أيها العبقري !

- هيّا .

سارت بمحاذاته . . . وقف بغتة وسألها مقترحًا :

- عِديني ان تشنقيني من فؤادي !

- . . . . .

- هل ينتهي أرقك وتتجمل صورتك بشنقي .

- دونما شك !

مبتسمًا وعلى محياه بدا ألق الحياة :

- انظري حولك الى البحر وهذي الأشجار .

ببلاهة وفضول قالت :

- ستهرب أم تُغرق نفسك .

ابتسم ، واتسعت ابتسامته فهمس :

- سأروي للورقة نهاية هذه القصة دون رمز . هذه الأشجار أقلامنا والبحر مدادنا . جففي المحيطات واشنقي أو احرقي الأدغال ولكن قبل ذلك هل تسمعين بالعصر الحجري ؟ .

- مجنون ؟

بدا أنه لم يسمعها :

- أنا لا اكتب إلا بقلم رصاص والآن . . . اغرسيه في قلبي ، فهو حاد كنصل ، ولسان قلمي طويل ، وتكونين بحال أو بأخرى شنقتني من فؤادي .

***

تماهت صورتها وغابت ، وكان يريد ان يضيف لها شيئًا لكنها لم تكن موجودة .

في أوج بهاء حزنه النبيل اقتعد الأرض وهنّأ نفسه على كثرة الماء والأشجار .

واخذ أو عاد يروي للورقة .


هوية

حين أخرج كل ما في جيوبه ووضعه على طاولة المقهى كانت هي الطريقة الصحيحة برأيه ليكون تفتيشه عن بطاقته الشخصية أمرًا مجديًا .

ان محفظته تحتوي على اكثر من مكان لدس أوراق وهويات وبطاقات . . . أخرج بطاقة رقم حسابه البنكي وتبسم بسخرية كون الحساب خاويًا تمامًا . . .

كذلك أزاح جانبًا هوية عضويته في بنك الدم ، أخرج فواتير الكهرباء والماء المتراكمة .

نظر في صورة ابنته وتبسم بأسى .

أخرج الدنانير القليلة وهي كل ما يملكه في هذه الدنيا . . قام ببسط هوية عضويته لجمعية الرفق بالحيوان ، وهوية عضويته لرابطة حقوق الإنسان . وقلب الأوراق الموجودة في محفظته القديمة فعثر على أرقام هواتف ، على بطاقات تحمل أسماء أصحابها وعناوينهم الإليكترونية والبريدية وهواتفهم الأرضية والمحمولة وصفاتهم .

لم يعثر في هذه الأوراق على بطاقته الشخصية .

في هذه اللحظة حيث استوقفته الشرطة في سيارة ترسل أضواء زرقاء وصفراء وتركته حيث لم يعثر على بطاقته الشخصية بعدما تأكد لها من منظره الرث ووجهه البائس بأنه ليس ذا خطر يذكر على أمن المدينة الآمنة لجأ الى المقهى في هذه الساعة المتأخرة عله يجد بطاقته الشخصية .

لم يعثر عليها .

فتش في جيوبه بعد محفظته دون طائل . حدث نفسه مغمغمًا :

- لا بد ان أهاتف زوجتي . لعلي نسيتها في البيت .

تذكر انه بلا بيت ولا زوجة . وان ابنته فارقته إذ لم يرحمها المرض .

أين آخر مكان أخرج فيه هويته ؟

استحث ذاكرته فلم تسعفه .

أجل .

قبل سنة همَّ بدخول إحدى الدوائر الرسمية استوقفه أحدهم . ولأن وجهه لايشي بخطر دخل الدائرة . لم يحظ بمقابلة الموظف المعني بالتعيينات ولمعرفة رقمه المتسلسل حتى نهاية النهار .

في اليوم التالي حضر لمقابلة الموظف فكان بانتظاره .

بكل دماثة وبطريقة تنم عن مهنية عالية سأله :

- ذَكِّرْني باسمك الكريم لو سمحت ؟

أجابه على الفور وكله أمل :

- صابر . . صابر ضعيف المنبتّ .

استفهم الموظف من اسم العائلة بحيادية وصوت خفيض :

- المنبتّ ؟

هز رأسه بالإيجاب مبتسمًا .

لم يبتسم الموظف ، وشرع في البحث ، بهمة من عليه عملاً استثنائيا لا بد من إنجازه سريعًا .

في تلك الأثناء ؛ استدرك الموظف وطلب اليه بطاقته الشخصية .

سأله كمن يدفع عن نفسه تهمة :

- الا تستطيع الحصول على الرقم إلا ببطاقة الشخصية ؟

قال الموظف وكأنه اكتشف مخرجًا لمأزقه :

- ألم تجدها بعد ؟!

«أســمـاء»

بعد ان أغلق (عبد الفتاح) السيارة وبداخلها المفتاح ، لم تنفع كل محاولاتي البائسة لفتحها وبقيت متحكمًا بأعصابي .

كان لا بد ان اذهب لتعزية صديق وأنا لا أملك سيارة أخرى .

اخباري بأن الصديق غير موجود داخل البلاد أثّر في نفسي . كان صادقا صديقنا المشترك (صادق) حين أخبرني أنه خارج البلاد فأخذت ألوم العباد .

طرق هاتفي صوت صديقنا المشترك الثالث (طارق) مؤكدًا أنّ صديقنا الذي لابد من مشاركته أحزانه خارج البلاد .

عندها لم أكن اعرف بعد ان (عبد الفتاح) لم يفتح السيارة بعد ان أغلقها لأعطال لا نفهمها .

قلت سأستر حزني هذه الليلة بالسهر مع صديقي (عبد الستار) فهاتفت منزله وعلمت انه مسافر . أكدت زوجته ذلك «ستر الله عليها» .

هاتفت (عليا) لعلي أعلل نفسي من كآبتها هذه الليلة فأجابني انه خارج البلاد .

لا أملك ثمن التنقل عبر وسائل المواصلات !

وزوجتي ، وهي تعلم ذلك تصر على أنها لا بد من ممارسة طقوس (الويك إند)! . . . بكيت داخل نفسي وضحكت . قلت لها كلما ذكرت لي (الويك إند) يتقافز الى ذهني ندمي على عدم الالتحاق بدورات (الكيك بوكسينج) . تضحك ، فتهتز جثتها الضخمة .

لي صديق لست اعرف عنه إلا انه أبعد ما يكون عن الدين ، بل أعلن إلحاده ، وتحدى الجميع ، ذات جرأة نادرة ، وقام برفع دعوى لتغيير اسمه الى (ابليس) !

أجابني لما سمع أني أريد أن أراه لنبدد كآبتنا معًا ، خمرًا ، وضحكًا ، أنه متجه الى أداء مناسك العمرة .

لم أتفاجأ !

جهدت في مهاتفة صديقي أبي مجاهد ، علني أخرج من حالة القبض التي تملأ قلبي ، فبسط لي أعذارًا واهية بأنه منشغل في عطوة عشائرية ، فضحكت وأنا الذي اعرف مقته وجهله هذه المسائل .

وقال أنه علي ان أُهاتف (أبا فارس) فهو يستطيع إعانتك في فتح السيارة ، ففرسه مثل فرسك أي سيارته مثل سيارتك ، تفرست في المعنى القبلي ، ولم ابتسم لكنني هاتفت (أبا فارس) فوجدت هاتفه قد ترجل عن الخدمة .

قلت : ما لي سوى صديقي الكريم (عبد الجواد) ، فما أجاد علي إلا ببضع ثوانٍ في مساعدتي لحل مشكلة السيارة ، وانه منشغل باستقبال ضيوف الآن . دعاني الى العشاء ، فسألته متشهيًا : منسف !

فأجاب صادقًا كعادته! لا والله (الجود من الموجود) .

صديقي(صادق) الذي يخون زوجته كل أسبوع أكثر من مرة أجابني انه في انسجام تام مع زوجته وأولاده ، وسيهاتفني لاحقًا .

ركنت إلى إنني سأنتحر إزاء مسألة كبرت في دماغي وصغرت الدنيا في عيني . . . . حين ركنت الى ذلك هاتفت (أبا ركان) الذي ركن رنين هاتفي جانبًا ولم يجب إطلاقا رغم انه لم يرتكن يومًا لسواي .

لا عجب في ذلك .

صديقي (جمعة مسكين) ، هاتفته ، فأجابني من فوره ، وهب إلى نجدتي ، وسألني ان كنت في حاجة الى أية خدمات مالية غير موضوع السيارة ، أجبته بحزن شفيف :

- ما معنى مسكين !

دلال

لم يكذب على نفسه - كعا دته - بأنه لم يحسب الف حساب لهذا التهديد الصارخ على الهاتف .

حبات العرق على جبينه ، وجيب قلبه الذي خاله مسموعا من زملائه ومرؤوسيه في المكاتب المجاورة ، القريبة والبعيدة ، أحرجه .

كانت مكالمة سيادته دعوة الى ان يحترم نفسه ، وإلا فإنه سيحترمها رغمًا عنه .

كلا . . لم يكن محدثه بهذه اللياقة أو الاختصار .

كانت المكالمة الصباحية مؤسفة وتثير الأسى .صوت جهوري ، غليظ ، سلطوي ينضح فوقية مقيتة :

- سليم ؟

لم يناده بلقبه فعرف أنه منهم !!

أجابه بأدبه المعروف مع الناس جميعًا :

- نعم ، تفضل يا عزيزي .

بقرف وصفاقة قذف في سمعه عبارته :

- أنا لست عزيزكْ يا (عزيزتي)!

أصابه ذهول مَنْ تلقى صفعة دون أدنى توقع .

أردف ذو الصوت الجهوري ، الغليظ ، السلطوي ، الصفيق ، المقرف :

– سيادة المدير على الخط . تشرف بمكالمته .

جاء صوت سيادته هادئا ، مريبًا ، ساخرًا ، يقطر سماجة :

– سليم .

ولم يذكر لقبه قبل سليم .

حين أجابه : نعم .

قاطعه بلهجة آمرة :

– تحترم نفسك باختيارك أم أجعلك تحترمها على طريقتي ؟!

استجمع بقية شجاعة تهاوت على صخرة هذا الهاتف الصباحي المزعج فرد :

– عفوا عم تتحدث سيادتك بالضبط ؟

اغلق السماعة غاضبا وبقي سؤاله معلقا في الهواء .

***

متوازنًا كان في كتاباته ، مخلصًا في عمله إخلاصًا يفوق عمل الرجل العادي .

أين تكمن المشكلة إذن ؟

مرتبكًا شرع يحلل ، لعل الأمر مجرد خطأ غير مقصود . أي انه الشخص الخطأ وان المكالمة ليست له . لم يحدد ، لكنه خاطبه باسمه . وان المكالمة كانت على هاتفه المباشر . وأبعد شكوكًا ساورته

من أن تكون احتمالات هذه المكالمة ليست إلا مداعبة ووقت فراغ يقضيه سيادته ليؤكد لنفسه وللآخرين انه مازال في دوامة سلطته . معقول ولكن ليس الى حد ان يكلمه شخصيا . لا يمكن .

ما كان من ملجأ له إلا ان يسبر أغوار تفكيره ويوغل في التحليل علّه يقف على حقيقة الأمر .

من درج مكتبه تناول بعض أقراص مهدئة وتناول قهوته المرة واكثر من إشعال اللفافة تلو الأخرى دون انقطاع !

انه خائف ؟

بعد ساعة جاء صوت سيادته ، ذات الصوت متهكمًا :

– تعال كالقط فورًا .

رد بمداراة :

– العفو سيادة المدير ، هل الأمر بهذه الأهمية ، إنني . . . .

فأغلق السماعة بعصبية ظاهرة .

***

بعد قرابة ساعة وهي المسافة التي يصل فيها سليم الى مكتب سيادته كان بانتظار ان يؤذن له بالدخول إليه هناك ، ومكث ثلاث ساعات حتى وصل الى مكتب سيادته ، وهناك مكث ساعة اخرى .

***

دخل متلجلجًا . اقترب من مكتبه الفخم المرتفع ، وكان جالسًا . مد يده لمصافحة سيادته الذي تجاهلها وهو ينظر اليه بسخرية منشغلاً بإشعال السيجار . وزجره بنظرة استعلائية .

ظلت اليد الممدودة إليه بالسلام معلقة لوهلة في الهواء ثم أعادتها الخيبة .

لم يجلس- تأدبًا - قبل ان يطلب إليه ، كما أملى عليه فكره المشوش ، وطعنة رفض مصافحته . لم يطلب اليه الجلوس ، فبقي واقفًا كتلميذ صغير يرتعد من مدرسه الغضوب اللئيم . كان يتصبب العرق من كل مساماته ، وينبت الخوف غابات في قلبه ، والدمع بحر مالح في روحه .

قال سيادته بهدوء :

- هل ترتطم قامتك القصيرة بسقف الحريات لأنه مرتفع ، أم لأن السقف منخفض ؟

- سيادة . . .

صرخ في وجهه :

- تقاطعني ايضا .

لاذ بالحيرة والصمت .

أخذ نفسًا عميقًا من السيجار ونفثه تجاهه :

- الا تعلم يا ابن المحترمة أن صديقي خال الكاتبة (دلال السيف) هو رفيق سلاح ؛ دلال التي لا تسمح ثقافتك القاصرة في الأدب ، بأن تنشر لها خواطرها ، ودلال التي لو كانت في بلد ديمقراطي لحازت على العالمية ولترجمت الى كل اللغات الحية وغير الحية ، لما تحمله خواطرها من فكر كبير . لعلمك أنا نفسي قرأته شخصيا !

وحرك رأسه مستهجنًا :

- ويصنفونك مفكرا . لست اعرف ما هذه المهزلة !

ثم أردف بصوت عال :

- إجلس . .

وداهمت سيادته نوبة سعال . هم بالجلوس متهالكًا فبادره صارخًا مشيرًا الى الباب وهو يجهد في قطع سعاله :

- اغرب عن وجهي ، إجلس في مكتبك . وهو ليس إلا لأمثالك من المتسولين .

أردف وقد خفض من صوته قليلا :

- وفكرّ بعمق ، ووسّع مداركك التفكيرية ، ونبِّش في الطريقة الحديثة التكنولوجية التي تكتب بها دلال السيف ، وبموضوعية واسعة!!

لم ينبس ببنت شَفَة ، غادر مكتب سيادته ، وعند البوابة الخارجية التي وصلها بعد ساعة مشيًا من ردهة الى أخرى ومن صعود درج الى هبوط آخر ، يسلمه حارس لآخر ، كان نحيب قلبه الذي يمشي ويهبط .

***

عند البوابة الخارجية مشى تحت شمس حارقة . كانت الشمس تصهر الرؤوس ماعدا رأسه ، لأنه لا يحس إلا بانهياراته الداخلية المتوالية . . وتراءى له انه أمسى رجلا ضئيلاً وبائسًا . فجأة توقف . لم يحتمل ما حدث له فانفجر باكيًا واتخذ قراره .

كـــان

كان يحلم ان ينشر ما يكتب في أية صحيفة أو مجلة أو ملحق ثقافي .

فليستشط نقدًا من هم ضد ان تبدأ القصة بـ(كان) ، ولكني أُحب كان وأخواتها ، وأُحبها هي أكثر من أخواتها لأنها فعل ماضٍ ناقص ، وناقص أي انه لا يدل على زمن . . . لا علينا . . . !

كان يحلم ان ينشر ليلفت نظرها ، فهو مغرور جدا بقلمه ، وهي كاتبة معروفة .

تمنى ان يتعرف إليها ، وكان لا يزال يعشق صداقة الذين يكبرونه سنًا ، لا ليتعلم منهم بل ليذكرهم بسنين مضت . . . ويجعلهم يشتعلون حنينًا الى رؤية أنفسهم فيه .

تذكر كل ما عانى من قمع المحررين لأنه كان لا يتزلف ولا تقع في نفسه هيبة من أحدهم ، ولا يتورع عن التعليق والمداعبة والمشاكسة أثناء لقائهم .

ألم أخبركم أنَّ غروره بقلمه كبير .

تذكّر - عفوًا مكررة -

ما غاب عن باله انه لا يعرف الكثير عن «شللية النشر والنقد» ، ولِمَ لَمْ ينشر له هذا هنا ولا نشر له ذاك هناك . ولِمَ تُقَدَّس رواية ليس لها من تصنيفها نصيب ، وكيف تنشر عنها الدراسات والقراءات ، وتعقد حولها الندوات ، وتتم طقوس تواقيع الكتب ؟!

ولم يكلف نفسه عناء نشر غسيل الشللية بألوانها المختلفة زاهدًا بغروره .

ثم ذات ضربة سوء طالع قام بنشر قصته الاولى . أحدهم وربما لحاجته لملء صفحته نشر قصته الأولى ، ثم نشر قصة له ثانية ، وثالثة ، وعاشرة . . . .

ولما كان لديه الكثير من القصص والروايات المخطوطات .

قام بإصدار مجموعته القصصية الاولى بعنوان «هكذا تكلمت أنا»

ولم يعبأ حتى لو قال عنها الغرب فيما لو ترجمت «شت» .

ثم روايته الاولى وهي سيرته الذاتية بعنوان «صفاتي» وديوان شعر .

ما كان يهمه كان ان تلتفت هي إليه .

ما أن يسمع بأمسية قصصية لها ، أو لمن يتوقع ان تحضر أمسياتهم ، حتى يكون أول الحاضرين .

ولشدة حضوره وعدم (تحرشه) بها بالنظرات أو المداخلات ما التفتت اليه .

وسار قطار العمر سريعًا . . باتت في نهاية العقد الخامس ، في

الثامنة والأربعين ، وها هو عقد من الزمن يفصلهما . . . .

تتألق هي وهو يتصدع . . . .

حدثته نفسه أن يهاتف كاظم الساهر ويستحلفه إن كان يعنيها هي بأغنية «كل ما تكبر تحلى» .

لكن غروره لم يسمح له أن يتنازل ويهاتف كاظم ، لماذا لا يهاتفه كاظم ويخبره من يقصد !

العجيب في الأمر أنها مغرورة أيضا . . . .

هل هذا عجيب ؟!

هل المغرور يكره المغرور ؟

هو يعرف ان الشخص المتواضع يكره المغرورين ويشفق عليهم . . . لذلك هم يكرهونه ، فهم جميعًا بلا استثناء متواضعون !

غروره بلغ حدًّ أن يضع نفسه في خانة المتواطئين على التواضع . . . علّها تلتفت إليه .سيضرب غرورها بدهشة تواضعه المفاجئ .

قرر زيارتها في دار النشر التي تمتلكها . . . ولأن التطبع غلبَ الطبع! هاتفها يستأذنها بأخذ موعد . . . شعرت بدوامة سلطتها . . . ولمعت في أم عين ذهنها سيوف غرورها . . .

اعتذرت عن استقباله دون إبداء أي عذر سوى أنها لا وقت لديها هذه الأيام .

سألها بتواضع خبيث :

- الشهر القادم .

أجابته باقتضاب :

- قم بترتيب الأمر مع السكرتاريا .

سألها بلهفة بعد شهر من محاولات الترتيب مع السكرتارية :

- انهم يقولون انكِ على سفر .

وهو على علم بأنها هي التي توعز لهم بذلك من خلال ما يعرفه عن مملكة غرورها .

أجابته وقد أرادت ان تنهي مسألة ما فيما بينهما .

- أجل ولكن تفضل اليوم .

- أي ساعة سيدتي ؟

بغرور وبنبرة آمرة :

- الآن .

***

في اليوم التالي أو الأسبوع التالي ليس يذكر . . . .

قال لها وهما في قاعة المغادرين في المطار . . . .

- لقد طلبت منهم عند الحجز ان لا يكون في جناح فندقنا مرايا .

- قبلت ان لا أسألك عن البلد الذي سنسافر اليه وانني سأعرف ذلك في المطار حين أرى التذكرة ، ولكن أليس للعشيقة ان تسأل حبيبها لماذا لا يريد مرايا في جناحها يا حبيبي .

أجابها بطبعه الهادئ :

- لن أجيبك لماذا لا أريد المرايا بل سأخبرك الآن وجهة سفرنا .

فرحت وبلهفة سألت :

- أين يا حبيبي أين ؟

دون ان ينظر إلا الى انتهاء حربه في ان تلتفت اليه قال :

- الى مدينة «كان» .

شرفة أرملة

لا بد ان اقتلها !

لا يعرف متى انبثقت هذه الفكرة لكنها فكرة ثقيلة لا يحتملها رغم صوابها .

إنها توغل في إيذائي . . تلح على استثارة أعصابي .

إذا قلت لها ان الطقس بارد ، أشعلي لو سمحتِ المدفأة قالت ان الجو حار وهي لا تحتمل إشعال المدفأة .

اقترح بهدوء :

– هل أذهب الى الغرفة الأخرى وأشعل المدفأة فأنا أشعر بالبرد .

تعقد حاجبيها :

– المهم ان تبتعد عني . أليس كذلك !

تربكني هذه المرأة .

اقترح ان أتدفأ بملابس ثقيلة وأن ألبس فروة الصوف .

تقول بقرف :

– فروة أبيك تذكرني بحياة البداوة وتبدو حزيناً اكثر مما أنت فيه حين تلبسها .

اكظم غيظي وقد حار فكري فيها . .

ماذا تريد ؟

أقول لها محاولاً التوفيق بين رغبتين :

- إذا كنت تشعرين بالدفء . . خففي من ملابسك وأرتدي أنا ملابس ثقيلة غير فروة الصوف .

ترد بقسوة كأنها تواجه جيشًا :

- وبعد ، هل تصر على مناكفتي ؟

أتوسل اليها ان لا تصرخ في وجهي ، وأُذكِّرها أنه يزعجني الصوت العالي والصراخ .

فيعلو صراخها :

- أنت لا تشعر بي إطلاقا .

بهدوء اهمس لها :

- أولم أكفك روحًا وجسدًا ؟ !

تقول كاذبة :

- كلا . أنا لا اشعر بك إطلاقًا .

بي رغبة جامحة للخروج من المنزل لا ألوي على أمل . أشرد بعيدًا ، وقد تناوبت على ذهني خواطر شتى . يعيدني صوتها المؤذي الى واقع بغيض .

بعصبية ظاهرة تقول :

- لقد مللتك .

بهدوء أسألها :

- كيف ؟

تزفر وتقول ببرود قاتل :

- حقا انك تافه .

أتصنع الهدوء قاسرًا نفسي أن تكتم غضبة الحليم .

أقول :

- تافه بمعنى توصيفي أي أني سطحي لا قيمة ولا معنى لي ؟ أم تافه بمعنى أني حثالة !

تصمت ، وأعرف انه الصمت الذي يسبق الشتائم .

وبغتة تصرخ بصوتها الحاد المؤذي :

- مللتك لأنك حثالة ، وأنك تفضل التسكع في الشوارع والجلوس في المقاهي على . . . .

كدت أقاطعها لكنها قالت وهي تشير بيدها مهددة :

- اسمع . تذكرّ أني تزوجتك شفقة عليك .

تصمت قليلا وبلهجة لم افهمها :

- وكنت أظن أني قادرة على جعلك بشرًا سويًا .

أقاطعها رغمًا عنها :

- أولم تقولي لي في بداية تعارفنا بأني مثقف وإنْ لم احمل شهادة جامعية . . . .

تقاطعني بصراخ حاد :

- أنت تعرف أني انتشلتك من وحل الفقر والحاجة والفاقة وقبلت بك زوجًا . .كي انهض بك .

ثم تتنهد وتقول :

- من أنت ومن أبوك ! ومن أنا ومن أنت ! تقرأ دائما . تحترف المقاهي وتدمن السأم ، لا فخر لك في حمل أي مؤهل علمي وأنا طبيبة ، وأبي تعرف من هو ، وأخوتي كلهم تعرفهم ، وأخوانك تعرفهم .

أصمت بحزن ، ليست هذه المرة الاولى التي اسمع منها تجريحًا كهذا .لأنه ماكان لأهلي ذنب جنوه في هذه الدنيا سوى أنهم فقراء بجدارة .

هذه المرة في هذا الشتاء القارس سألتها والدمعة تترقرق في عيني :

- ماذا كنت تبتغين من زواجي غير ان تنهضي بي ؟

ها أنا اسأل هذا السؤال بعد زمن على زواجنا ؟ !

تقول ببرود وابتسامة حقيقية على شفتيها :

- بصراحة مطلقة . لوسامتك ، ولكي لا يقال بأنه فاتني قطار الزواج . في مجتمع لا يرحم يا بني !

ضحكت وأردفت كأنها تلقي محاضرة :

-كيف سينظر المجتمع الى طبيبة جميلة جدًا تجاوزت الثلاثين ولم تحظ بعريس ؟!

حرت في أمر المرأة . . هذه الطبيبة المريضة ، وذكّرتُها بأنها طالما أطلقت عليّ صفة المرهف والحساس في بداية تعارفنا .

تطلق ضحكة مجلجلة وتقول :

- أنت غبي . كنت أصطادك .

أقول بخبث حقيقي :

- وهل الجميلات يصطدن من لاجاه له ولا قبيلة ، ثم فلنعترف بأنكِ لستِ جميلة جدًا ، لا بل ولا جميلة حتى !

صعقت واضطربت ملامحها .

تصيح مستنكرة وقد أصابت كلماتي منها مقتلا :

- لستُ جميلة ؟ !

قلتُ بكل صراحة :

- إطلاقًا .

قالت كأنها تكلم نفسها :

- لم تقل هذه الكلمة قبل هذه الليلة !

- لأني مرهف وحساس وحقيقي ولا أرغب بجرحك .

- ولمَ حافظت على حساسيتك الى هذه الليلة .

حرت جوابا .

قلت بحيادية مطلقة :

- المجتمع لا يرحم وأنت تفضلين صفة (مطلقة) على (عانس) .

أومأت برأسها وكأنها تكلم طفلا :

- نعم .

قلت بأسى بالغ وبحروف واضحة منتقمة :

- أما أبوك فلأنه سارق كبير لم يكن أبي ليشبهه وحاشى له ذلك .

قالت مناكفة وبسخرية :

- واخوتي ؟

قلت بجدية محزنة :

- «الولد سر أبيه» .

متنمرة زفرت :

- وبعد ؟

قلت بيأس تام :

- قد مللت هذي الحياة معك يا دنيا .

قالت توغل في إيذائي :

- أُذكِّركَ اني لا أرغب بأن يكون لي إبنًا أو إبنة ، من رجل على شاكلتك .

آنذاك كانت تصب المرارة في شراييني !

أقول جادًا :

- أنا حساس ومرهف ، وبودي لو يطلق عليك المجتمع الذي لا يرحم صفة ألطف وأخف وطأة من (مطلقة) .

تضحك وتعلو ضحكتها : ماذا ستفعل أيها الحساس ؟ وقبل ذلك هل أنا غير جميلة ؟

تقولها مجروحة وبتزلف لعلي أغير رأيي . بغتة ودونما مقدمات أهب من مجلسي .

***

قام من مجلسه وصفعها وأحس انه يصفع الدنيا بكل حقارتها .

وخرج من الغرفة باتجاه الشرفة .

وصاح بصوت حسبه قويا :

- دنيا .

تجاهلت صوته .

رفع من صوته الضعيف ليخرج قويًا صاخبًا :

- يا دنيا .

أجابته بسخرية :

- ماذا يا حساس ؟

بصوت حزين قوي يصرخ :

- تفووووو .

قالها وهو يلقى بنفسه من شرفة شقتها الواقعة في الطابق السادس .

الانتخابات

عليكَ ان تنسى هذا الرقم !

رسالة نصية يتلقاها عبر الهاتف الخلوي وقعت عليه وقع المصاب الجلل .

لقد تورط في كرنفال ترشيح ابنه للانتخابات البرلمانية الى حد بات معه يفقد كل احترام له أمام الناس .

سرح بعيدًا وأخذ يحدث نفسه أو يقيس الأمور .

طوال عمري وأنا احتقر هؤلاء الناس ، لم أُقدم مساعدة لأي منهم ، وكنت أفرُّ منهم فرار المها من ضيغم فاتك .

انني اكرهم . . . وأكره فقرهم . . . أنا أصلاً أكره الفقراء . . . . كل الفقراء

اعتبرهم أغبياء ، ولو كانوا يملكون قليلا من الذكاء لما بقوا على حالهم فقراء .

اذكر ذلك الشاب - ابن عمي - الذي رجاني ابوه الحالم بقصور الجنة وانهارها في إحدى المناسبات ، كي أتوسط لتوظيفه ، وقد تصادف ان سألني أحد أصدقائي الذي يملك عدة شركات عما إذا

كنتُ أعرف محاسبًا قانونيًا فأرسلت إليه هذا الشاب ، ما أن أمضى معه عدة أيام حتى هاتفني صديقي ، يشكرني ويأسف لأخباري انه قد صرف الشاب من وظيفته ، فأخبرته انه أتعب نفسه بهذه المكالمة وعليه ان يطرده دون ان يستأذنني أو يعتذر ، ولم أسأله عن السبب ، فالمؤكد انه على حق وهذا الفقير الكريه قد يكون سارقًا أو مزورًا أو مرتشيًا !

وبالفعل حين التقيت صديقي سارع وفاتحني بالأمر قائلاً ، ان قريبي رفض التوقيع على كشف حساب فيه (بعض المبالغة) في نفقات مكتب المدير ، وقال له ان هذه أمور لا يقبلها ضميره ، ولا يستطيع التوقيع عليها ، ولما قلت له أنك تستطيع أخذ مبلغ ليس قليلاً أبدا لتيسير أمورك ، وان تقوم بإمضاء الكشف ، إلا انه رفض ، وقال لي ان هذه رشوة . ضحكنا ، ولعنت في سري اليوم الذي جعلني أحرج أمام صديقي وأرسل اليه بأناس وجوههم ليست وجوه «رزقة» .

لكم أكره هؤلاء البلداء .

واستشيط غضبا إذا ما سألني أحد الناس عنهم ، وفيما إذا كانت تربطني بهم علاقة قربى ، إنهم فقراء بطريقة مؤذية ، ويعتبرون هذا الفقر حالة من حالات الابتلاء الإلهي .

أستطيع ان اطلب الى أي منهم الحضور إليّ في أية ساعة ، وأجعله يستمع الى أي كلام أتفوه به ، وأراه يضحك على أية كلمة إذا اعتبرتها أنا نكتة حتى ولو كانت سبة تنال منه أو من أبيه أو أمه .

بلداء !

لست اجزم اليوم انهم لن يخدعوني في انتخابات «صرصار» !

انهم لا يفهمون حتى لماذا أسميته هذا الاسم ، لا يفهمون مجاملتي لأحد أصدقائي الوزراء وقد كان في حالة انتشاء قصوى فطلب مني ان اسمي ابني «صرصار»

لدى هذا الوزير الكثير من المشاريع التي يستطيع بإشارة منه ان يحيلها الى مكتبي ، أحالها وأخذ منها نسبة بسيطة ، فهل خسرت لما قبلت تسمية ابني «صرصار» وكسبت الكثير من الأموال والعقار ؟

لقد بلغ نفوذ هذا الوزير الصديق رحمه الله في امتحانات الثانوية العامة أنه قام بإحضار أسئلة كل امتحان قبل موعده بثمانٍ وأربعين ساعة ، مما جعل صرصار يتفوق على مستوى المملكة الأمر الذي أهله دخول كلية الطب ، واصبح بعد سنوات ودعوات وولائم ، الدكتور صرصار .

اليوم وحين اصبح الحلم قريبا بأن يخوض الانتخابات البرلمانية أحاول ان أعود الى هؤلاء الفقراء الأغبياء الذين جعلهم القدر أبناء عمومتي لتحشيدهم في حملة الانتخابات التي باتت على الأبواب .

بعض الأغبياء يصفون صرصار بأنه لا شخصية له ، وانه (دلوع) ويعتمد عليّ في كل شيء ، ويصفونه بالبخل ، وآخرون يقولون انه غبي ، لا يعرف في هذه الدنيا إلا الحفلات الصاخبة وأنواع السيارات الفارهة والملابس الثمينة ، وهم يقولون ذلك لانهم لا يملكون العيش مثله ، ولا يقدرون قيمة المال ، فينعتونه بالبخل ، ويفسرون عزوفه عن ممارسة الطب بأنه لا يفهم فيه شيئا ، وان التجارة إنما هي غطاء على

ذلك أو من باب انه لا بد ان يعمل بأي عمل .

وأخيرًا يجيئني هذا الحثالة الشاب ذو اللحية الكثة ابن عمي المحاسب وقد هاتفته أكثر من مرة ليأتي الى وليمة أعددتها أنا باسم صرصار ليدافع عنه - لهذا المحاسب اللعين قدرة حقيقية عجيبة في التأثير على هؤلاء الأغبياء - .

جاء هذا الحشرة ليقول لي .

عليك ان تنسى هذا الرقم !

أغبياء حاسدون .

مازال بالامكان الزج بهذا المحاسب الكريه في السجن لوجود تلاعب منه في حسابات شركة صديقي .

ولكن بعد الانتخابات .

مقبرة لا تلفها الوحشة

ثاني ايام عيد الفطر السعيد ، ولم يكن سعيدًا . وحده يسير في الشوارع التي بدت شبه خالية من المارة ، وتكاد تكون خالية من المركبات .

لقد أبدى أعذارًا مقنعة قبيل العيد لأمه واخوته ، وأصدقائه بأنه لن يؤدي مهام العيد بسبب هجوم الأنفلونزا الحاد الذي بدا عنيفًا هذه المرة ، وزاد وكذب عليهم ان هاتفه المحمول في حالة غيبوبة لسقوطه في حوض الحمام ،لذا سيكون مغلقًا ؛ أو معطلاً .

هو يحبهم جميعا . . كل من هاتفه أو هنأه بالعيد برسالة نموذجية معدة من متخصصي صياغة الرسائل في كل مناسبة ؛ ويحب أيضًا من لم يرسل .

يالهذي الحماقات المتكررة في العيد ، فهي ذات الأحاديث المكررة الحمقاء . فمن سائلةٍ عن عمر الرضيع الذي لم تره منذ العام الماضي؟ الى جواب أكثر بلاهة بأنه كبر عاما ، الى التغني بجماله ، والاعتزاز بأنه يفوق العفاريت شقاوة ، والى التقاط تحليلات الفضائيات دون نسبها لمصادرها انما الى لنفسه ، وتصل الى مسامعه

أصوات حادة كنصل ، صادرة عن عالم المطبخ الذي يعج باضطرابات طبائخية وصرعات وقلاقل في مفاعلات الحلويات لم ترد في بال مطابخ ناسا الدولية !

وفي واحد من هذه الأعياد كان محور الحديث الممتد ان الحرب البرية وشيكة على العراق ، وفيها ستكون مقبرة الأعداء ، وكان مدار الحديث في العيد الذي سبقه من أن التاريخ يقر أن هناك محافظة تسمى التاسعة عشرة .

ويزيد العذاب عذابا ان أكثر من أربعة أشخاص يتحدثون في الوقت نفسه وفي نفس النقطة البائسة . ويصمتون معًا تقريبًا .

انها مصارعة حرة رباعية لا تحترم التحكيم .

وبعدها وفي عيد آخر كانوا يحللون ويشرحون – وقطع الشوكولاته وكعك العيد تملأ فم كل محلل وشارح – حتى تخال نفسك وسط فيلم رعب ، كيف سينتهي هذا الحظر رغم ان مصالح الدول متضاربة وكيف سينكسر الحصار بسهولة .

منتهى العذاب . قال في نفسه .

***

أعلن لزوجته انه لابد من السفر ، وكانت فرحته عارمة حين أبدت عدم رغبتها بمرافقته في هذا العيد ، لأن شقيقها سيحضر من الخليج ، فرح كثيرًا لأنها لو وافقت لكان بحاجة الى كذبة أخرى غير مؤذية لمشاعرها بعدم إمكانية السفر .

***

ثاني ايام عـيـد الفطر . . زار أحـبـتـه الذين صـمـتـوا واكـتـفـوا بالتحليل . . أو بإغداق الفرح على روحه الكئيبة ايام كانوا واحته في صحراء الدنيا القاحلة .

آنسـه مؤنس في أم الحيـران ، ولم يرهقـه هو بأي تحليل ، إذ بقي جالسًا عند شاهد ضريحه يدخن دون ان يكون هناك بنت شـفـة أو بنت عين .

وقبلها استراح بجوار مثوى شقيقة عمره التي رحلت منذ عقد فانفرط عقد أفراحه وطلب إليها ان لا يتحدثا إلا بما كانت تريحه به ؛ طلب إليها ان تغني له مثل ما كانت :

«يا طير الحزين ع الشجر» !

ولولت الريح ، فاعتذر منها ، واخبرها انه بخير ، وان العالم مازال مجنونا كما تركته . بل يزداد جنونا .

ومضى .

صادفه بباب الخروج من عندها جمع من المشيـعين كـانوا من أقربائه في الدم ؛ توارى ببناء المسجد حتى مضوا ، وانسل بمركبته الى حيث لا يدري .

كان في خاطره ان يعود الى البيت ، ويتناول حبات منومة ترحمه مما هو فيه قبل ان يرقد عند رأس من آنسوه .

قادته مركبته الى طرقات ضيقة وأخرى فسيحة ؛ لم يكن يدري على ماذا يلوي سوى ان يبقى وحده .

الأهل والأصدقاء والصديقات يعلمون انه لا يستطيع ان يبرح

منزله وان هاتفه معطل على الأغلب - وقد يكون صالحًا - وحدها زوجته من يعرف طقوس عيده ، ولا تأبه كثيرا بها ، لقد تعايشت مع ذلك . الهاتف مغلق . .

أخيرًا . . وصل الى بار (آفتر إيت) ، دلف الى طاولة بخطى متعبة وجذع منحنٍ وانخرط في التناجي والوشوشات مع الحلو والمر ، الثقيل والخفيف ؛ وبعد وقت لا يدري أقصر أم طال خطر له ان يفتح هاتفه كي يرى إن كان هناك مَنْ هاتفه . قرر فتح هاتفه المحمول .

وانتظر . . كان يتهكم على ذاته بهذا الانتظار . فأغلقه برهة ، ثم فتحه .

جاء الرنين .

صوتها يقطر بهجة عيد :

- أين أنت ؟ كل عام وأنت بخير .

صوت حميمي دافئ .

من فوره أجاب :

- حيث أنا .

جاءه الصوت مستنكرًا .

- ما بك ؟ أأنت مريض ؟

استدرك هو . . سائلاً بأدب :

- عفوا من تريدين .؟

مكالمة بالخطأ .

بعد برهة جاء الرنين الثاني . . دون ان يحمل رقمًا معروفًا .

- كل عام وأنت بخير يا بطة .

- وأنتِ بخير .

ثم وحتى لا يقع في حرج آخر ، رفع من صوته قائلا باستفهام مؤدب :

- الصوت غير واضح . . مَنْ ؟

صاحبة الصوت قالت على الفور :

- آسفة يبدو أنى أخطأت الرقم .

مكث ساعة اخرى ؛ أغلق هاتفه وخرج مطوفًا في أرجاء المدينة ساعة أخرى على غير هدى .

انه لا يرغب حقيقة بسماع أي شيء .

وبغتة تذكر ان له صديقة أشبه ما تكون بحالته ، فهي لا تحب ان ترى أحدًا في المناسبات العامة ، وهي غزيرة الكتابة ، قليلة الكلام ، ثم أنها لا تفاجئها مفاجآته السارة وغير السارة ، ويعرف أنَّ العيد لا يعنيها مطلقًا . . وفوق هذا منقطعة عن العالم «الخارجي» . لا صنعة لها سوى ان تبقى وحدها ، تكتب وترسم ، وسيكون رائعًا ان يكون الحديث كله صمتًا وهي الوحيدة التي تشبهه اليوم .

هاتفها قائلا ان كان يستطيع لقاءها ، وجد أنها تعتذر كونها في دوامة المعايدات العديدة ، تزور وتزار ، وأدهشته ثرثرتها وانشغالها العارم بالعيد ؛ سألها عن مرسمها وكتاباتها فقالت بشبه قرف لم تستطع مواراته :

- نتحدث لاحقًا . أراك قريبا ؟

طار السؤال والجواب في الهواء ولم يسقط في قلبه .

***

طارت به مركبته الى أم الحيران . استلقى دون غطاء الى جنب صديقه . . تغطيه السماء وتدفئ جسده الكؤوس والمكالمة الأخيرة . . وحشة المقبرة تبددت ما ان استلقى الى جانب صديقه «مؤنس» مثله لا يشارك في حماقات العيد .

حكمة العاشق

وجدته مقطب الجبين وكأنه دفن أبويه منذ قليل . كل تقاطيع وجهه تبكي ، وكاد يبكيني لولا ان تمالكت نفسي . أقبل عليّ . . . خلته سينفجر ان لم يبح لي بمكنونات روحه .

ضحكت داخل نفسي :

- ما المصيبة التي وراءك ؟

تمنع قليلا بدلال الأطفال ولكن حزنه باد دون ريب .

استفسرت منه الأمر بكلمات أقرب ما تكون الى الاستدراج . ان العشاق ينقلبون أطفالاً من فرط شعورهم .

قال بغضب :

- ميار !

تبسمت لاني كنت اعرف انه ليس سواها من يجعله هكذا .

تبسمت واقتربت منه أكثر وسألته :

- ما بالها ؟

كاد ان يبكي حين قال ببراءة :

- تريد أن تفسخ خطوبتنا .

تصنعت الجد وسألته :

- هل أغضبتها ؟

صرخ وأخذ يحلف الأيمان بأنه لم يفعل شيئا ، بل على العكس هو لا يحبها كثيرا ، ولكننا نحن المحيطين أجبرناه على التمسك بها ، ومع ذلك قرر انه لا بد ان يحبها ، وقد اخبرها في بعض المناكفات والمشاجرات بذلك .

ضحكت أنا .

سألته :

- ما الحل برأيك لهذه المشكلة ؟

سرح بعيدا وبدا وقد غرق في تفكير عميق .

وبكل براءة همس وكأنه يحدث نفسه :

- كلبة !

ضحكت أنا حتى تضايق من ضحكتي ، وكاد يغادر الغرفة احتجاجًا لكني قمت بتهدئته مقترحًا . أن يعودا الى سالف عهدهما .

أبى ذلك ، وقال :

- اكره كل البنات بسبب ميار ، وأريد مصادقة إنسان يحبني ويحترمني على ان لا يكون بنتًا .

ذكرته بليالي المرح والفرح وبالهدايا والمفاجآت التي كانت بينهما لكنه لم يقتنع .

كان يلمح ابتساماتي التي أداريها عنه لمدى علمي بذكائه لئلا ينهار فجأة ويبكي .

قال ان عليه ان يغير حياته ، وميار وهديل ، وأصدقاءه أيضًا راضي وحسام ورغد لانهم كلهم يكذبون .

قلت في نفسي ولم اضحك هذه المرة وحسبته لسان حالي وقد علا قلبي حزن شفيف :

- لعلك يا بني وأنت ابن الرابعة تعطي حكمتك لأبيك بعد ان أحرق أربعين من عمره !

محتوى الكتاب

THE BALCONY OF A WIDOW



شرفة أرملة

تطلق ضحكةً مجلجلة ، وتقول :

ـ أنت غبيّ . كنت أصطادك .

أقول بخبث حقيقيّ :

ـ وهل الجميلات يصطدن مَن لا جاه له ولا قبيلة ؟ ثمّ فلنعترف بأنّك لست جميلة جدًّا ، بل ولا جميلة حتّى !

صُعقت واضطربَت ملامحها .

تصيح مستنكرةً وقد أصابت كلماتي منها مقتلاً :

ـ لست جميلة ؟!!

قلت بكلّ صراحة :

ـ إطلاقًا .

قالت كأنّها تكلّم نفسها :

ـ لم تقل هذه الكلمة قبل هذه الليلة !

ـ لأنّي مرهف وحسّاس وحقيقيّ ولا أرغب بجرحك .




ISBN 978-9953-36-155-X



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ، ص . ب : ٥٤٦٠-١١
هاتفاكس : ٧٥٢٣٠٨/٧٥١٤٣٨
http://www.airpbooks.com